

سلطة المقدّس ودورها في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري
**The authority of the sacred and its role in shaping the social
fabric of Mesopotamia and Egypt**

د. محمّد الغريسي

باحث بمدرسة الدكتوراه، جامعة الزيتونة-تونس

ghrissimohamed22160187@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/12/20 تاريخ القبول: 2025/12/21 تاريخ النشر: 2025/12/25

ملخص:

يتناول هذا المقال دور سلطة المقدّس في تشكّل النسيج الاجتماعي في الحضارتين الرافدية والمصرية، من خلال مقارنة فلسفية وأنثروبولوجية. ويرى البحث أنّ المقدّس لم يكن مجرد معتقد ديني أو ممارسة شعائرية، بل بنية رمزية أساسية للمعنى والتنظيم الاجتماعي والسياسي.

يفصل المقال بين السياقين البيئيين والحضاريين: ففي بلاد الرافدين أدّت التقلّبات المناخية والفيضانات المتكرّرة إلى تعدّدية مقدّسة، حيث ارتبطت كلّ مدينة بإله محدّد، ما أسفر عن شبكة معقّدة من المراكز الدينية والسلطوية المتوازنة: بينما أسهم انتظام فيضان نهر النيل في مصر القديمة في بناء رؤية دينية موحّدة، جسّدت السّلطة المقدّسة في الفرعون والنظام الكوني المتناغم. ويبين البحث أنّ المقدّس شكّل آلية لإضفاء الشرعية على القوانين والسلطة كما لعبت الطقوس والأساطير والعمارة دوراً في تثبيت هذه السّلطة داخل المجتمع. ويخلص المقال إلى أنّ فهم سلطة المقدّس في العالم القديم يتيح رؤية أعمق لكيفية تشكّل المجتمعات، ويكشف عن استمرارية أنماط الضبط الرمزي للسلطة والمعنى والهوية حتى في المجتمعات الحديثة.

الكلمات المفتاحية: سلطة المقدس، النسيج الاجتماعي، الحضارة الرافدية،

الحضارة المصرية، النظام الكوني.

Abstract:

This article explores the role of sacred authority in shaping the social fabric of Mesopotamian and Egyptian civilizations through a philosophical and anthropological lens. The study argues that the sacred was not merely a religious belief or ritual practice, but a fundamental symbolic structure organizing social and political life. The article distinguishes between environmental and civilizational contexts: in Mesopotamia, frequent climatic fluctuations and floods led to a pluralistic conception of the sacred, with each city associated with a specific deity, forming a complex network of balanced religious and political centers. In contrast, the regular flooding of the Nile in ancient Egypt enabled a unified religious vision, embodied in the pharaoh and the harmonious cosmic order. The research shows that the sacred legitimized laws and authority, while rituals, myths, and architecture reinforced its power within society. Understanding sacred authority in the ancient world provides deeper insights into social formation and the enduring symbolic regulation of authority, meaning, and identity even in modern societies.

Keywords: Sacred authority, social fabric, Mesopotamian civilization, Egyptian civilization, cosmic order. Translate into English

*المؤلف المرسل: د. محمد الغريسي

(1) مقدمة

لم يكن المقدس في العالم القديم مجرد بعد اعتقادي معزول أو ممارسة شعائرية هامشية، بل شكّل الإطار الرمزي الأعلى الذي انتظمت داخله الحياة

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري

الإنسانية في مختلف تجلياتها؛ فقد تداخل الدينيّ بالسياسيّ والأسطوريّ بالقانوني والطقسيّ بالاقتصاديّ بحيث غدت سلطة المقدّس المحرك البنيويّ الذي يُنظّم الاجتماع الإنسانيّ ويمنحه تماسكه واستمراريته. وفي هذا السّياق، لا يمكن مقارنة المجتمعات القديمة بوصفها كيانات ماديّة قائمة على الإنتاج والعمران فحسب بل ينبغي فهمها باعتبارها بنيات رمزيّة ومعنويّة تدار من داخل تصوّر كوني مقدّس يحدّد معنى الوجود، ويضبط أنماط السلوك ويمنح الشرعيّة للسلطة والنّظام الاجتماعيّ.

ويكتسب هذا التّصوّر أهمّيّته الخاصّة عند دراسة حضارات الأنهار الكبرى وعلى رأسها الحضارتان الرّافدية والمصريّة، اللّتان تشكّلتا في سياق تاريخيّ تميّز بالاعتماد شبه المطلق على الطبيعة، وبخاصّة على انتظام النّهر وتقلباته؛ ففي بلاد ما بين النّهرين حيث البيئة غير المستقرّة والفيضانات العنيفة والتقلّبات المناخيّة الحادّة تشكّل الوعي الدينيّ في علاقة وثيقة بالخوف من الطبيعة ومحاولة استرضاء قواها، ما أفرز تصوّراً كونيّاً تتعدّد فيه الآلهة وتتوزّع فيه السّلطة المقدّسة بين قوى كونيّة متنازعة. أمّا في مصر القديمة، حيث وقرّ نهر النيل انتظاماً نسبياً ودورة فيضانيّة أكثر استقراراً، فقد أسهم هذا المعطى البيئيّ في إنتاج رؤية دينيّة تميل إلى الوحدة والانسجام وتجسيد المقدّس في صورة نظام كونيّ متوازن، تجسّده فكرة "ماعت" بوصفها مبدأ للعدل والنّظام والانسجام.

وانطلاقاً من هذا الاختلاف البيئيّ والحضاريّ، تبلورت أشكال متباينة لسلطة المقدّس في المجتمعين الرافديّ والمصريّ؛ إلا أنّها اشتركت في كونها المرجعيّة العليا التي تأسّس عليها النّسيج الاجتماعيّ. فقد لعب المقدّس دوراً محورياً في تنظيم العلاقات الاجتماعيّة، وتحديد مراتب الأفراد والجماعات وتقنين السّلطة السياسيّة، وإضفاء الشرعيّة على القوانين والمؤسّسات.

ينطلق هذا المقال من إشكالية مركزيّة مفادها: ما معنى المقدّس؟ وكيف أسهمت سلطته في تشكّل النّسيج الاجتماعيّ في الحضارتين الرّافدية والمصريّة؟ وإلى

أي حدّ انعكس اختلاف البيئة الطبيعيّة والتصور الكونيّ على طبيعة هذه السّلطة ووظائفها الاجتماعيّة والسياسيّة؟ كما يتفرّع عن هذه الإشكاليّة تساؤلات فرعيّة، من قبيل: ما الآليات الرمزيّة والطقسيّة التي مكّنت المقدّس من فرض سلطته داخل المجتمع؟ وكيف تحوّل الدّين من منظومة اعتقاديّة إلى أداة تنظيم اجتماعي؟ وما أوجه التّشابه والاختلاف بين النّمودجين الرّافدي والمصريّ في توظيف المقدّس لبناء النّظام الاجتماعيّ؟

(2) في معنى المقدّس

تعرّضت المعاجم اللّغويّة إلى ضبط معنى المقدّس لفظيًّا و دلاليًّا؛ أمّا المقدّس في اللّغة فهو مشتقّ من الجذر (ق.د.س)، ويحمل بين ثناياه جملة من المعاني كالتعظيم والتّزّه والطّهر والتّزّه عن النّقص والعيب والمماثلة ويؤكد ذلك: ما جاء في لسان العرب من أنّ المقدّس: المبارك والأرض المقدّسة الأرض الطّاهرة، و من هذا بيت المقدس أي البيت المطّهر أي المكان الذي يتطهّر فيه من الذنوب والتّقدس التطهير والتبريك. (ابن منظور، 1414هـ، 168/8)

المقدّس هو المعنى المقابل للمدّنس أو هو الشيء المخالف للدّنيوي (مرسيا إلياد، 1988، ص16). وقد يكون المقدّس دنيويًّا من جهة تكوينه ولكنّه يستمدّ قداسته من القوى الخفيّة التي حلّت فيه. وللإشارة فإنّ موسوعة لالاند الفلسفيّة عرّفت المقدّس بأنّه: "كلّ ما يتعيّن عليه أن يكون موضوع احترام دينيّ من قبل جماعة من المؤمنين، فالكائنات أو الأشياء المقدّسة هي تلك التي تدافع عن المحرّمات ويحميها بينما تكون الكائنات أو الأشياء المدنّسة هي الخاضعة لتلك المحرّمات والتي لا يجوز لها الاتّصال بالأولى إلّا بموجب عبادات وشعائر محدّدة لكن هذا بالذات لا يكون بلا تحفّظات وقيود لأنّ على القدسيّ أيضًا أن يتجنّب في أحوال كثيرة الاتّصال بالدّنيوي المدنّس". (موسوعة لالاند، 2001، ص ص1229-1230)

تتكشف فلسفة المقدّس بوصفها تفكيرًا في حدود الوجود الإنسانيّ بين المتعالي واليوميّ وبين المطلق والنسبيّ حيث يغدو المقدّس مجالًا فاصلاً يؤسّس للتمييز بين ما هو مشروع وما هو محرّم، وما يجوز الاقتراب منه وما يستوجب المهابة

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الراقدي والمصري

والامتناع؛ فالمقدّس لا يُعرّف بماهيّته بقدر ما يُعرّف بوظيفته إذ يتمثّل في قدرته على خلق مسافة رمزيّة بين الإنسان والعالم مسافة تُنتج الوعي بالحدود وتؤسّس للمعنى عبر المنع بقدر ما تؤسّسه عبر الإباحة. ومن هنا، لا يقوم المقدّس فقط على الحضور بل على الحظر ولا يُمارس سلطته من خلال التجلّي وحده بل من خلال ما يفرضه من محرّمات تضبط الرغبة وتعيد توجيه الفعل الإنسانيّ.

وفي هذا السياق، يصبح المقدّس أفقا يُمكن الإنسان من تجاوز العشوائيّة والاندفاع عبر إدماج الوجود داخل نظام معياريّ متعال. فباسم المقدّس تُشرعن القوانين وتُوطر الأخلاق ويُعاد ترتيب العلاقات الاجتماعيّة وفق مبدأ يفوق الإرادة الفرديّة، غير أنّ هذه السلطة الرمزيّة لا تلغي الفاعليّة الإنسانيّة بل تعيد تشكيلها داخل منظومة من المعاني المشتركة حيث يتحوّل الامتناع إلى المقدّس من فعل قسريّ إلى ممارسة ذات معنى. وهكذا يتجلّى المقدّس كقوة مزدوجة: فهو من جهة يؤسّس النّظام والمعنى، ومن جهة أخرى يفرض الهيبة والامتناع ما يجعل منه عنصرا حاسما في تشكّل الوعي الأخلاقيّ والاجتماعيّ في المجتمعات الإنسانيّة.

3) سلطة المقدّس بوصفها بنية رمزيّة مؤسّسة

جاء في القاموس الأنثروبولوجيّ أنّ المقدّس هو صلة يطلقها المجتمع على أشياء وأماكن وأعمال يعتبرها واجبة الاحترام فيقيم لها طقوسا دينيّة لاعتقاده بأنّها بعبادة الإله أو الآلهة أو المعبودات والقوى فوق الطّبيعيّة أو لأنّها ترمز إلى القيم الأساسيّة للمجتمع، ولهذا فهي مصنونة من العبث والتّخريب والمصطلح نقيض مصطلح غير مقدّس ويختلف تصنيف الأشياء والأماكن والأعمال إلى مقدّس وغير مقدّس باختلاف الجماعات وما تتواضع عليه. (شاكر سليم، 1981، ص 837) كما حدّد عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركايم في كتابه الأشكال الأولى للمقدّس للحياة الدينيّة قدسيّة المقدّس بما يبعدها بشكل كامل عن مجال المدنّس، فبقدر ما يحيل المقدّس داخل سياق تعارضه مع المدنّس إلى ما هو طاهر وخالص فإنّ المدنّس يحيل إلى ما دنوي ونجس. (Durkheim Emile, 1915)

تنبع سلطة المقدّس من كونه يُقدّم باعتباره مصدر النّظام والمعنى، لا باعتباره فكرة مجردة. فالمقدّس في المجتمعات القديمة لم يكن اختيارا فرديّا، بل

واقعا جمعياً مفروضاً، يتغلغل في اللغة، والطقوس، والأساطير والتشريعات وأنماط العيش. وقد أدى هذا التغلغل إلى إنتاج نوع خاص من السلطة: سلطة لا تُمارَس بالقسر المادي المباشر بل بالإقناع الرمزي والتطبيع الثقافي.

إن هذه السلطة الرمزية جعلت من النظام الاجتماعي انعكاساً للنظام الكوني، ومن الطاعة الاجتماعية فعلاً دينياً، ومن الخروج عن الأعراف خرقاً للناموس المقدس. وهكذا، يصبح المقدس أداة لتوحيد الجماعة، وضبط التراتبية، وإعادة إنتاج القيم المشتركة.

4) تعددية المقدس وتشظي النسيج الاجتماعي في بلاد الرافدين

على خلاف النموذج المصري الذي قام على وحدة مركزية للقداسة والسلطة، تميّزت حضارات بلاد الرافدين بتعددية مدهشة في المقدس والآلهة والمراكز الدينية، انعكست مباشرة على بنية النسيج الاجتماعي والسياسي والثقافي؛ فقد ارتبط كل مركز حضري بإله محدد، وكان لكل معبد سلطته الرمزية والسياسية، ممّا أدى إلى نشوء شبكة معقدة من الولاءات المتقاطعة بين الكهنة، والملوك المحليين، والسكان، والأقليات الدينية. هذه الشبكة لم تنتج فوضى اجتماعية، بل شكّلت نسقاً مرناً من العلاقات والاعتمادات المتبادلة، قائماً على توازن بين المراكز المقدسة المختلفة، حيث لم يكن هناك مركز واحد يهيمن على كامل المجتمع بل عدّة قوى متوازنة تتحرّك ضمن منظومة من القواعد الرمزية والطقسية.

وللإشارة، يمثّل الفكر الديني السومري حلقة مركزية في تطور الوعي الديني في بلاد ما بين النهرين، إذ لم يكن نتاجاً معزولاً عن الواقع الاجتماعي والبيئي، بل جاء انعكاساً لتجارب سكان جنوب وادي الرافدين في مواجهة بيئة طبيعية متقلبة وموارد غير مستقرة. فقد واجه السومريون منذ بداياتهم تحديات عدة، منها الفيضانات الموسمية للنهرين، والجفاف المتكرر، وتغير المناخ الذي أثر بشكل مباشر على الزراعة والعيش اليومي. هذه الظروف دفعت الإنسان السومري إلى تطوير نظام فكري

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري

يهدف إلى تفسير الظواهر الطبيعية والتحكم فيها بالوسائل الرمزية والدينية، وهو ما يجعل الدين السومري ليس مجرد ممارسة روحانية، بل أداة للتكيف النفسي والاجتماعي والسياسي مع الطبيعة. (محمّد أبو شحمة، 2023)

وقد منح السومريون السماء مكانة مركزية في تصورهم الديني، باعتبارها مصدرًا للأمطار التي تضمن الحياة الزراعية واستقرار المجتمع، ومن هنا نشأ الاعتقاد بوجود إله السماء "آن"، الذي جسّد مفهوم القوة العليا المنظمة للكون. ولم يقف الفكر الديني عند هذا الحد، بل توسع ليشمل طيفا واسعا من القوى الإلهية التي تمثل مختلف مظاهر الطبيعة، مثل المياه والرياح والأرض والنبات إضافة إلى القوى البشرية والاجتماعية التي وجدت انعكاسا في آلهة تتحكم في القضاء والقدر والحرب والسلام. وهكذا أنتج السومريون منظومة دينية معقدة يقوم فيها كل إله بدور محدد، وينظر إليه على أنه المسؤول عن جزء من الوجود ما يعكس رغبة الإنسان في السيطرة على كلّ جانب من جوانب الحياة سواء الطبيعي والاجتماعي.

ولا يمكن فصل الفكر الديني عن البنية الاجتماعية والسياسية، إذ لعبت هذه المنظومة دورا تنظيميًا في المجتمع السومري؛ فقد شكّلت العبادة والطّقوس وسيلة لترسيخ السلطة السياسية والاجتماعية حيث ارتبطت بعض الآلهة ارتباطا وثيقا بالحكّام والمعابد كمراكز للقدرة الرمزية والسيطرة الاقتصادية. ومن جهة أخرى عكست الديانة السومرية رؤية الإنسان حول العالم والوجود إذ جسّدت معتقداته في طقوس وممارسات يومية من خلال تقديم القرابين وتشييد المعابد وتنظيم الاحتفالات الموسمية التي ربطت المجتمع بالزّمن الطبيعي ومواسم الزراعة ممّا يوضّح كيف كانت العلاقة بين الإنسان والطبيعة متبادلة ومعتمدة على فهم ديني عملي.

وبذلك، يظهر الفكر الديني السومري كإطار فكري متكامل يربط بين الطبيعة والمجتمع والسياسة، ويكشف عن محاولة الإنسان السومري فهم قوى الكون وتوجيهها، وتحويلها إلى نظام قابل للإدارة والتأثير، سواء على المستوى الفردي أو

الجماعي؛ فهو مثال مبكر على كيفية تشكل الديانة كأداة للتنظيم الاجتماعي وتحويل الخوف من الطبيعة الغامضة إلى نظام قيم وأعراف يؤطر الحياة اليومية ويمنحها معنى.

ومن منظور أنثروبولوجي تعكس هذه التعددية قدرة الإنسان القديم على توزيع السلطة المقدسة بحيث تلبي الاحتياجات الاجتماعية والسياسية المختلفة، وتستجيب لعدم اليقين البيئي والسياسي الذي كان يعيشه السكان؛ فالتغيرات المفاجئة في النهر، والجفاف والغزوات المتكررة والخصومات بين المدن جعلت من الدين أداة للتكيف والتوسط بين الإنسان والقوى الطبيعية المتقلبة والخطرة. وهكذا أصبح المقدس وسيطا متعدد الأوجه، لا يقتصر على علاقة الفرد بالمقدس، بل يمتد ليشكل شبكة من التفاعلات الاجتماعية والسياسية التي تضمن التماسك النسبي بين المراكز المختلفة، وتؤسس لإعادة إنتاج النظام الاجتماعي في ظل غياب وحدة مركزية. (زينة قاسم، 2018)

علاوة على ذلك، يمكن النظر إلى التراث الأسطوري والطقوسي كآليات رمزية لتعزيز هذا النسق؛ فقد صممت الأساطير لتفسير الظواهر الطبيعية وربطها بالآلهة المختلفة، وبالتالي إنتاج معنى جماعي يربط الفرد بالمجتمع والمركز المقدس المحلي. وكانت الطقوس والمناسبات الدينية فرصة لتأكيد الولاءات، وخلق شعور بالانتماء إلى شبكة اجتماعية أوسع رغم تشظي السلطة. وهكذا يبرز الدين هنا بوصفه أداة إنتاج اجتماعي ومعرفي، يتيح إدارة النزاعات المحلية وضبط العلاقات بين المراكز المختلفة وتحقيق نوع من التماسك الاجتماعي متعدد الطبقات والمستويات.

كما أن تعددية المقدس في بلاد الرافدين (زينب عبدالتواب، 2021، ص63) تشير إلى إمكانية وجود سلطة رمزية غير مركزية حيث يمتلك كل مركز ديني قدرة على فرض قواعده المحلية، بينما يظل مرتبطا بشبكة من القيم والممارسات المشتركة التي تحافظ على نوع من النظام الكوني والاجتماعي. ومن هذا المنظور، يصبح

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري

المقدّس في بلاد الرافدين ظاهرة ديناميكيّة ومتعدّدة الأبعاد تجمع بين البعد الرمزيّ والوظيفة الاجتماعيّة والسياسيّة، وتتيح قراءة المجتمع كنسيج مركّب من المراكز، كلّ منها يستمدّ شرعيّته من القوة الرمزيّة لمعبده وإلهه دون أن يُلغى التفاعل والتوازن مع المراكز الأخرى. (نعمان جمعة وآخرون، 2021)

وبذلك، يمكن القول إن تشطّي النسيج الاجتماعيّ في بلاد الرافدين لم يكن علامة على ضعف المجتمع أو انهياره، بل على مرونة مقدّسة فريدة، تجعل من التعدديّة محورا للتّماسك الاجتماعيّ، ومن سلطة المقدّس أداة لإدارة عدم الاستقرار، وتوفير إطار للمعنى والشرعية ضمن عالم متغيّر وغير يقيني. فالتعدديّة الدينية هنا، برغم تنوّعها وتعدّد مراكزها، تؤدي وظيفة تكاملية: فهي تضمن استمرار الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة، وتخلق شعورا بالانتماء، وتحوّل الشبكة الاجتماعيّة إلى نظام ديناميكيّ قادر على التكيّف والبقاء عبر الأجيال. (جاسم حسين، 2018، ص 145-160)

5) المقدّس وبناء النسيج الاجتماعي في الحضارة المصرية القديمة

لا يمكن مقارنة نشأة الحضارة المصريّة القديمة خارج أفق سلطة المقدّس بوصفها البنية العميقة التي شكّلت الوعي والوجود الاجتماعيّ والسياسيّ معا؛ فالحضارة في هذا السياق لا تُفهم باعتبارها تقدّما تقنيا أو تنظيما اقتصاديا تدريجيّا، بل كتحقّق رمزي لاستجابة الإنسان القديم لسؤال الوجود الأول: كيف يمكن العيش في عالم يسوده الغموض دون نظام يمنحه المعنى والاستمرارية؟

لقد أدرك المصريّ القديم من خلال معاينته الدقيقة لدورات الطبيعة، ولا سيما انتظام فيضان النيل، أنّ العالم لا يتحرّك وفق المصادفة بل يخضع لقانون كونيّ ثابت يتجاوز الإرادة الإنسانيّة، وهذا الإدراك لم يبق في مستوى الملاحظة الطبيعيّة، بل تحوّل إلى وعي رمزيّ يرى في النّظام الكونيّ تعبيرًا عن مبدأ مقدّس سابق

على الاجتماع البشري، ومهيمن عليه في آن واحد. (حسن عبد الحميد، 2002، ص 370-379)

ومن هنا لم يكن المقدّس عنصرا اعتقاديا معزولا أو مجالا شعائريّا خاصّا، بل سلطة شاملة تنظّم الزّمن والمكان والعلاقات الاجتماعيّة، وتحدّد ما هو ممكن وما هو ممنوع داخل الجماعة؛ فالزمن في الحضارة المصريّة لم يكن خطأ محايدا، بل بُني شعائريّا وفق إيقاع مقدّس، تُقاس فيه اللّحظات بقربها أو بعدها عن النّظام الكونيّ. والمكان بدوره لم يكن فضاء هندسيا صرفا، بل حقلا دلاليّا تتوزّع فيه القداسة، فتغدو المعابد والمقابر والمدن نفسها تجسيدا ماديا لسلطة المقدّس في ضبط المجال الاجتماعي. بهذا المعنى، يصبح الوجود الإنساني برمّته مُدرجا داخل بنية رمزيّة تجعل من الخضوع للنّظام المقدّس شرطا للاستمرار لا مجرد اختيار ثقافيّ.

وتتجلّى هذه السّلطة على نحو أكثر وضوحا في تشكّل الدّولة والسلطة السياسيّة. فالفرعون في الوعي المصري القديم لم يكن حاكما دنيويّا يستمدّ شرعيته من القوّة أو التوافق الاجتماعيّ، بل وسيطا أنثروبولوجيا بين النّظام الكونيّ والمجتمع البشريّ. لقد تماهت شخصيّة مع المقدّس، بحيث غدا وجوده تجسيدا حيّا للانسجام الكونيّ، وضمانة لاستمراره. وبهذا المعنى فإن السّلطة السياسيّة لم تكن مفصولة عن المقدّس، بل كانت امتدادا له، تمارس باسم الحفاظ على توازن العالم لا باسم المصلحة الزمنيّة وحدها. إنّ الطّاعة، في هذا الإطار لا تفهم بوصفها خضوعا قسريّا، بل كفعل وجودي يهدف إلى منع عودة الفوضى وإلى صون النّظام الذي بدونه ينهار الكون والمجتمع معا. (سليم حسن، 2017، 1/114)

وقد أسفر هذا التّدخل العميق بين المقدّس والسياسيّ عن بناء نسيج اجتماعيّ شديد التماسك، تُبرّر فيه التراتبيّة الاجتماعيّة باعتبارها انعكاسا مباشرا للنّظام الكوني ذاته فالفوارق بين الطبقات وتوزيع الأدوار ومكانة الكهنة والموظفين والعَمال، لم تُقدّم بوصفها نتاجا تاريخيا قابلا للنّقد أو التّغيير، بل كترجمة أرضيّة

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري

لإرادة مقدّسة متعالية. (صوفي أبو طالب، 1965، ص469) وبهذا تحوّلت سلطة المقدّس إلى آلية لإنتاج الشرعيّة الاجتماعيّة تُضفي على الواقع طابع الضرورة وتُحيّد إمكان مساءلته لأن الطّعن في النظام الاجتماعيّ يفهم ضمّنًا كمساس بتوازن الكون ذاته. فرنسوا ديماس، 1998، ص145)

كما اضطلعت الطّقوس الدينيّة، والعمارة الجنائزيّة، والأساطير المرتبطة بالحياة الآخرة بدور محوريّ في إعادة إنتاج سلطة المقدّس عبر الزّمن؛ فالطقس لم يكن ممارسة تعبدية فحسب، بل أداة رمزيّة تُعيد تمثيل النّظام الكونيّ وتثبيته في الوعي الجمعيّ. والعمارة خاصة الأهرامات والمعابد لم تكن إنجازات تقنيّة أو تعبيرات جمالية فحسب بل نصوصا حجريّة تُجسّد فكرة الخلود، وتحول السلطة إلى حقيقة مرئية ومهيبة. أمّا الأساطير الجنائزية فقد أدّت وظيفة وجودية عميقة إذ ربطت مصير الفرد بعد الموت بمدى انسجامة مع النّظام المقدّس في حياته، ما جعل الامتثال الاجتماعيّ فعلاً أخلاقياً وميتافيزيقياً في آن واحد.

كان للرموز والأسرار في مصر القديمة دور مهم، سواء في الحياة الدينية أو الاجتماعيّة أو السياسيّة. فعلى سبيل المثال، عرفت مصر القديمة ثلاث طُرق للكتابة: الكتابة الهيروغليفية والكتابة الهيراطيقية والكتابة الديموطيقية، وهي بالترتيب لكتابة المقدس والإداري والتجاري. وكانت الكتابة تتسم بالوظيفية والتعدد الطبقي للمعنى، دون إقصاء لمعان أخرى. كما كانت الأسرار والرموز المصرية القديمة منفتحة على التأويل، وتتيح مستويات متعددة من الفهم الأسطوري (صلاح هلال، 2025)، وعلى هذا الأساس، لا تبدو الحضارة المصريّة القديمة مجرد مثال تاريخي لهيمنة الدّين على المجتمع، بل نموذجاً أنثروبولوجياً مكتملاً لاشتغال سلطة المقدّس في بناء الاجتماع البشريّ؛ فهي تُظهر كيف يتحوّل المقدّس من معتقد إلى بنية ناظمة للمعنى ومن رمز إلى سلطة ومن تجربة روحيّة فرديّة إلى نظام شامل يضبط الوجود ويمنح التاريخ شكله، ويؤسّس المجتمع على قاعدة تتجاوز الإنسان وتحتويه في

الوقت نفسه، ومن ثمّ فإن دراسة الحضارة المصريّة من هذا المنظور تتيح فهما أعمق لكيفيّة تشكّل المجتمعات القديمة، حيث لم يكن المقدّس هامشاً للسياسة والاجتماع، بل مركزهما الصّلب ومصدر شرعيتّهما القصوى.

(6) خاتمة:

تُظهر المقارنة بين النماذج الحضارية في العالم القديم، وخاصة الحضارتين الرافدية والمصرية، أنّ المقدّس كان العنصر الأساسي الذي تشكّل حوله المجتمع وانتظم من خلاله. فلم يكن المقدّس مجرد معتقد ديني يوازي الحياة اليومية، بل الإطار الذي فهم الإنسان القديم من خلاله العالم من حوله، ونظّم علاقاته الاجتماعية، وحدّد موقع السلطة ومعناها. فمن داخل هذا الأفق المقدّس تبلورت القوانين، واكتسبت السلطة مشروعيتها، وتكوّنت صورة الجماعة عن نفسها وعن تاريخها ومصيرها.

لقد أدّى المقدّس دوراً محورياً في تثبيت النظام الاجتماعي، إذ جعل الخضوع للقانون والسلطة مرتبطاً بمعنى أعلى يتجاوز الأفراد، لا بمجرد القوة أو الإكراه. فالحاكم لم يُنظر إليه كفاعل سياسي فقط، بل كحلقة وصل بين الإنسان والعالم الإلهي، وهو ما منح النظام الاجتماعي قدراً من الاستقرار والاستمرارية. كما أسهمت الأساطير والطقوس في بناء ذاكرة جماعية مشتركة، أعادت ربط الحاضر بالماضي، ومنحت المجتمع إحساساً بالهوية والانتماء.

وإذا كانت العلاقة بين الدين والمجتمع قد شهدت تحولات عميقة في مراحل لاحقة من التاريخ، فإنّ دراسة العالم القديم تكشف أنّ الاجتماع الإنساني في بداياته لم يكن ممكناً خارج هذا الأفق المقدّس. فالمقدّس كان اللغة التي عبّر بها الإنسان عن حاجته إلى النظام والمعنى، والوسيلة التي حوّل بها الجماعة البشرية من تجمع هشّ إلى مجتمع منظم. ومن هنا، فإنّ فهم سلطة المقدّس لا يساعد فقط على قراءة

سلطة المقدّس ودوره في تشكّل النسيج الاجتماعي الرافدي والمصري
 الماضي، بل يفتح أفقًا أوسع لفهم العلاقة المعقدة التي ما تزال تربط الإنسان
 بالسلطة والمعنى والهوية حتى اليوم.

هذا ويفتح البحث في سلطة المقدّس وآليات اشتغالها داخل المجتمعات
 القديمة أفقا معرفيًا واسعًا يتجاوز حدود الدّراسة التاريخيّة الوصفية ليطال فهم
 البنى العميقة التي شكّلت الاجتماع الإنسانيّ في مراحلهِ الأولى؛ فالمقدّس لا يظهر
 بوصفه معطًى منتمياً إلى الماضي فحسب، بل كنسق رمزيّ قابل للتحوّل وإعادة
 التشكّل، يستمر حضوره بأشكال مختلفة في المجتمعات اللاحقة. ومن ثمّ، فإنّ تعميق
 البحث في علاقة المقدّس بالسلطة والهوية والذاكرة الجماعية يتيح قراءة أكثر وعياً
 لمسارات التحوّل الاجتماعيّ، ويكشف عن استمراريّة أنماط الضبط الرّمزي والمعنى
 حتى في السياقات الحديثة التي تبدو ظاهرياً منزوعة القداسة.

5. قائمة المراجع:

- ابن منظور (1414هـ)، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت-لبنان، ط3، 168/8.
- مرسيا إلياد (1988)، *المقدّس والمدّس*، ترجمة عبدالهادي عبّاس، دار دمشق-سوريا، ط1، ص 16.
- موسوعة لالاند الفلسفيّة (2001)، ترجمة وتحقيق خليل أحمد خليل، دار عويدات للنّشر والطّباعة، بيروت، ط2، ص ص 1229-1230.
- شاكر سليم (1981)، *قاموس الأنثروبولوجيا*، جامعة الكويت، ط1، ص 837.
- محمّد أبو شحمة (2023)، *الطقوس الدينية السومرية وأثرها على تطور العمارة الدينية في جنوب بلاد ما بين النهرين*، مجلة كلية التربية، جامعة سرت، المجلد2، العدد2.

د. محمد الغريسي

- زينة قاسم (2018)، *الفكر الديني وتأثيره على مجتمع بلاد الرافدين*، مجلة العلوم الإنسانية والمسألة الدينية (أعمال المؤتمر العلمي الثالث)، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم التاريخ.
- زينب عبدالنواب (2021)، *دماء على بوابات العالم السفلي: دراسة حضارية*، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، ص63.
- نعمان جمعة وآخرون، *المفهوم الديني للمعابد في بلاد الرافدين*، مجلة دراسات في التاريخ والآثار، العدد78، سنة 2021.
- جاسم حسين يوسف (2018)، *العلاقة بين البشر في بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسمارية*، مجلة مركز دراسات الكوفة، العدد49، ص ص145-160.
- حسن عبدالحميد (2002)، *تاريخ النظم القانونية والاجتماعية*، دار النهضة العربية، القاهرة، ط4، ص ص370-379.
- سليم حسن (2017)، *موسوعة مصر القديمة*، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 114/1.
- صوفي أبو طالب (1965)، *مبادئ تاريخ القانون*، دار النهضة العربية، القاهرة، ص469.
- فرنسوا ديماس (1998)، *آلهة مصر*، ترجمة زكي سوس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1، ص145.
- صلاح هلال (2025)، *الحضارة المصرية القديمة*، جريدة الأهرام، مصر، العدد 50637.
- Durkheim Emile(1915): *Elementary forms of Religious Life* ,London: G.Allen Unwin, New York , Mack millan.